دروب الحرية

تصدر هذا الشهر الترجمة الكاملة لرواية جان بول سارتر « دروب الحرية » بقلم الدكتور سهيل ادريس . وقد رأينا ان نقتطف منها الفصل التالي :

بدأ الناس يذهبون ، وكانت الساعة حوالي الثانية صباحا وكان جبين ماتيو يسيل عرقا ، ولكنه لم يكن يجرؤ على مسحه ، وكان خجلا من ان يعرق امام ايفيش ، لقد رقصت من غير توقف ، وظلت ممتقعة الوجه ، ولكنها لم تكن ترشح عرقا . وكانت قد قالت صباح اليوم نفسه : « انني اشمئز من جميع هذه الايدي الزجة » ، وهو لايعرف بعد مايفعل بيديه . وكان يستشعر الضعف والتعب ، ولم تكن به اية رغبة بعد ، ولم يكن يفكر بشيء بعد . وبين لحظة واخرى ، كان يقول ان الشمس لن تلبث طويلا حتى تشرق ، وان عليه ان يستأنف مساعيه ، ويخابر مارسيل، وساره ، ويعيش نهارا اخر بطوله . وكان هذا يبدو له امرا لايصدق . انه يود لو يبقى الى الابد امام هذه الطاولة ، تحت هذه الانوار الاصطناعية . بالقرب من ايفيش . وقالت ايفيش بصوت ثمل :

ـ انني مسرورة جدا .

ونظر اليها ماتيو : كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان شيء تافه كافيا لتغييرها الى غضب . وقالت ايفيش :

ـ طز فيالامتحانات ، واذا سقطت فسأكون مسرورة . انني هذا المساء ادفن حياتي كطفلة .

وابتسمت وقالت في حماسة :

ـ انها تلتمع كاؤلؤة صغيرة !

ـ ما الذي يلتمع كاؤلؤة صغيرة ؟

ـ هذه اللحظة . انها مستديرة ، معلقة في الفضاء كاؤلؤة صغيرة . انني خالدة .

وتناولت سكين بوريس من مقبضها ، وأسندت صفحة الشفرة على جانب الطاولة وأخذت تتسلى بمحاولة طيها ، ثم سألت فجأة :

ـ ما بالها ، تلك ؟

ـ من ؟

ـ المرأة ذات الثوب الاسود ، الى جانبي . انها لم تكف منذ مجيئها توبخني .

وأدار ماتيو رأسه : وكانت ذات الثوب الاسود تنظر الى ايفيش من طرف عينها .

وسألت ايفيش : ـ الا ترى ؟ اليس صحيحا .

ـ اظن ان نعم .

ورأى وجه ايفيش الصغير الكز وعينيها الغامضتين الحاقدتين وفكر : « كان خيرا لي ان اصمت . » وكانت ذات الثوب الاسود قد فهمت جيدا انهما كانا يتحدثان عنها : ذلك انها اتخذت مظهرا متغطرسا ، وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر الى ايفيش بعينيه الكبيرتين . وفكر ماتيو « كم يبدو هذا مضجرا ! » وكان يستشعر الكسل والجبن ، وكان مستعدا لاعطاء كل شيء ليحول دون حدوث شيء .

وتمتمت ايفيش وهي تخاطب السكين :

ـ هذه المرأة تحتقرني لانها محتشمة . اما انا فلست محتشمة . انني اتسلى وأثمل ، وسوف اسقط في شهادتي « واضافت فجأة بصوت قوي » انني اكره الحشمة !

ـ اسكتي يا ايفيش ، ارجوك .

فنظرت اليه ايفيش نظرة مثلجة وقالت :

ـ اظن انك تكلمني ؟ صحيح . انت ايضا محتشم . لا تخف : فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين امي وابي ، فسأكون اكثر احتشاما منك .

وكانت مسترخية على مقعدها ، وكانت تسند بعناد شفرة السكين على الطاولة وتثنيها بحركة مجنونة . وساد صمت ثقيل ثم التفتت ذات الثوب الاسود الى زوجها وقالت :

ـ انني لا افهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع .

فنظر الزوج بخوف الى كتفي ماتيو وهمهم : « نعم »

واضافت المرأة : ـ ليس الخطأ كله خطأها ، وانما المذنبون هم الذين سلموها الى هنا .

ولا شك في ان ايفيش قد سمعت ، ولكنها لم تقل شيئا ، وكانت عاقلة . عاقلة اكثر مما ينبغي : كانت تبدو وكأنها ترصد شيئا ، وكانت قد رفعت رأسها واتخذت مظهرا غريبا مهووسا وجذلا .

وسألها ماتيو في قلق : ـ ماذا هناك ؟

وكانت ايفيش قد امتقعت تماما .

ـ لا شيء . وانما ارتكب عملا اخر غير محتشم ، لكي اسلي السيدة . اريد أن ارى كيف تحتمل منظر الدم .

واطلقت جارة ايفيش صرخة خفيفة وخفقت اجفانها . ونظر مانيو بسرعة الى يدي ايفيش : كانت تمسك السكين بيدها اليمنى وتشق باطن يدها اليسرى بعناية . وكانت بشرتها قد انفلقت مابين ربلة الابهام حتى جذر الاصبع الصغير ، وكان الدم يقطر على مهل . وصاح ماتيو :

ـ ايفيش .. يداك المسكينتان .

وكانت ايفيش تقهقه في غموض ، وسألته :

ـ هل تظن انها سوف تدير عينيها ؟

ومد مانيو يده فوق الطاولة فتركته ايفيش يأخذ السكين بلا مقاومة . وكان ماتيو ضائعا ، وكان ينظر الى اصابع ايفيش الهزيلة التي كان الدم قد لوثها ، وكان يفكر بان يدها كانت تؤلمها . وقال :

ـ انت مجنونة ! تعالي معي ، فان سيدة المفسلة سوف تضمد جرحك.

ونددت عن ايفيش ضحكة خبيثة :

ـ تضمد جرحي ؟ هل انت مدرك لما تقول ؟

فنهض ماتيو : ـ تعالي يا ايفيش ، ارجوك ، تعالي بسرعة .

فقالت ايفيش من غير ان تنهض :

ـ انه شعور لذيذ جدا . لقد كنت اظن ان يدي كانت قطعة من الزبدة.

وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى انفها ونظرت اليها بعين فاحصة . وكان الدم يسيل في كل ناحية ، فكأنه ذهاب نمل وايابه . وقالت :

ـ انه دمي . احب كثيرا ان ارى دمي .

قال ماتيو : ـ كفى ، كفى !

وامسك ايفيش من كتفها ، ولكنها تخلصت منه بعنف ، فسقطت نقطة دم كبيرة على الخوان . وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين تلتمعان كراهية . وسألته :

ـ مازلت تسمح لنفسك بان تلمسني ؟ « واضافت في ضحكة شامتة » كان علي ان اوقن بانك ستجد ذلك مبالغا فيه ، انه يثيرك ويغضبك ان يتسلى المرء بدمه .

وكان ماتيو يشعر بانه يمتقع من فرط الغضب . فعاد يجلس ، وبسط يده اليسرى على الطاولة وقال بتلذذ :

ـ مبالغ فيه ؟ يا ايفيش ، بل اني اجده جذابا . اظن ان ذلك لعب تمارسه فتيات الطبقة النبيلة ؟

وزرع السكين دفعة واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريبا . وحين ترك السكين ، ظلت مركوزة في لحمه ، مستقيمة ، ومقبضها في

الهواء . وقالت ايفيش مشمئزة :

ـ آه ! آه ! انزعها ! انزعها ؟

فقال ماتيو وهو يكز على اسنانه :

ـ اترين ؟ ان هذا في متناول جميع الناس .

واستشعر العذوبة والكثافة ، وخشي قليلا ان يغمى عليه . ولكن كان في داخله نوع من الرضى المصدوم وارادة سرطان رديئة وخبيثة. انه لم يفعل ضربة السكين هذه في باطن كفه ازدراء لايفيش فحسب ، بل كان ذلك ايضا تحديا لجاك ، وبرونيه ، ودانيال ، وحياته . وفكر : « انني حمار ، وان برونيه على حق اذ يقول باني طفل عجوز . » ولكنه لم يكن يستطيع ان يمنع نفسه من ان يكون مسرورا . وكانت ايفيش تنظر الى يد ماتيو التي كانت تبدو مسمرة على الطاولة ، والى الدم الذي كان يتدفق من حول الشفرة . ثم نظرت الى ماتيو ، وكانت هيئتها قد تغيرت تماما . وقالت على مهل : ؟

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فسألها ماتيو في صلابة : ـ وانت ؟

والى يسارهما ، كانت ثمة ضجة مهددة : كان ذلك الرأي العام ، وكان ماتيو يسخر منه ، وكان ينظر الى ايفيش . وقالت ايفيش :

ـ آه انني .. انني آسفة جدا .

وتضخمت الضجة ، واخذت ذات الثوب الاسود تنقنق :

ـ انهما ثملان ، وسيذبح احدهما الاخر .. يجب ان يمنعا من ذلك انني لا استطيع ان ارى هذا .

والتفتت بعض الرؤوس ، وهرع الخادم :

ـ هل تريد السيدة شيئا ؟

وكانت ذات الثوب الاسود تضغط منديلا على فمها ، واشارت الى ايفيش وماتيو من غير كلمة . ونزع ماتيو بسرعة السكين من الجرح فاحدث له ذلك ألما شديدا .

ـ لقد جرحنا ايدينا بهذا السكين .

وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك ، فقال من غير ان ينفعل :

ـ اذا شاء السيد والانسة ان يتوجها الى المغسلة ، فان السيدة هناك تملك كل ما يلزم .

ونهضت ايفيش هذه المرة بوداعة ، فاجتازا الحلبة وراء الخادم ، وكل منهما يرفع احدى يديه في الهواء ، وكان هذا مشهدا هزليا لم يستطع ماتيو معه ان يمتنع عن الانفجار بالضحك . ونظرت اليه ايفيش نظرة قلقة ثم اخذت تضحك هي ايضا . وكانت من شدة الضحك بحيث ان يدها قد ارتجفت ، فسقطت نقطة دم على البلاط . وقالت ايفيش :

ـ انني اتسلى كثيرا .

وصاحت سيدة المغسلة :

ـ يا الهي ! يا آنستي المسكينة ، ماذا فعلت بنفسك ؟ والسيد المسكين ؟

فقالت ايفيش : ـ لقد لعبنا بسكين .

فقالت سيدة المغسلة حانقة : ـ هكذا ان الحادث يقع بسرعة ، وهل كان سكين منزل ؟

ـ كلا .

ـ آه ! كنت احدث نفسي .. (واضافت وهي تفحص جرح ايفيش) ما اعمقه ! ولكن لا تقلقي . سوف اسوي كل شيء .

وفتحت خزانة فاختفى فيها نصف جسمها . وتبادل ماتيو وايفيش بسمة . وكانت ايفيش تبدو وكأنها صحت من سكرها ، وقالت لماتيو :

ـ ما كنت اصدق ان بوسعك ان تفعل هذا .

قال مانيو : ـ ترين اذن ان كل شيء لم يضع .

فقالت ايفيش : ـ لقد بدأ هذا يؤلمني الان .

قال ماتيو : وانا كذلك .

وكان سعيدا . وقرأ كلمة « للسيدات » ثم « للسادة » باحرف من ذهب على بابين ملمعين بالرمادي المصفر ، ونظر الى الارض ذات المربعات البيضاء ، واستنشق رائحة معطرة بالانيسون المطهر ، فتمدد قلبه ، وقال باندفاع :

ـ ليس من الرديء جدا ان يكون المرء سيدة مغسلة !

فقالت ايفيش في تفتح : ـ طبعا لا !

وكانت تنظر اليه في هيئة وحشية رقيقة ، وترددت لحظة ، ثم أطبقت فجأة باطن كفها اليسرى على كف ماتيو المجروحة ، فند عن ذلك اصطفاق مبلل . وقالت موضحة :

فشد ماتيو على يدها من غير ان يقول كلمة ، وأحس بألم حي ، وكان لديه احساس بان فما كان يفتح في يده . وقالت ايفيش :

ـ انك تؤلمني كثيرا .

ـ اعرف ذلك .

وكانت سيدة المغسلة قد خرجت من الخزانة وهي تشعر ببعض عسر هضم . وفتحت عليبة حديدية وقالت :

ـ هذا هو العلاج .

ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود ، وابرا ومقصات ولفافات . فقال :

ـ انت مجهزة تجهيزا جيدا .

فهزت رأسها في جد وقالت :

ـ آه ! هناك ايام لا مجال فيها للمزاح . امس الاول ، الفتاامرأة قدحها على رأس واحد من خيرة زبائننا . وكان هذا السيد يسيل دمه ويسيل ، فخشيت على عينيه ، وانتزعت من حاجبه شظية كبيرة من الزجاج .

وكانت سيدة المغسلة تشغل نفسها حول ايفيش :

ـ بعض الصبر يا جميلتي ، ان ذلك سيحرقك قليلا ، انها صبغة اليود ، حسنا ، انتهى .

وسألت ايفيش بصوت منخفض :

ـ هل تصارحني ... اذا بدوت قليلة الرصانة ؟

نعم .

ـ اود ان اعلم بم كنت تفكر حين كنت ارقص مع لولا .

ـ منذ لحظة ؟

ـ نعم ، حين دعا بوريس الشقراء . كنت وحيدا في ركنك .

قال ماتيو : ـ اظن اني كنت افكر بنفسي .

ـ كنت انظر اليك ... لقد كنت جميلا ... جميلا تقريبا . ليتك تستطيع دائما ان تحتفظ بتلك الهيئة .

ـ ليس بوسع المرء دائما ان يفكر بنفسه .

وضحكت ايفيش :

ـ اما انا ، فأعتقد اني افكر دائما بنفسي .

وقالت سيدة المغسلة :

ـ اعطني يدك يا سيدي . انتبه ، سوف يحرقك قليلا . حسنا ، لن يكون هذا شيئا ذا بال .

وأحس ماتيو بحرق شديد ، ولكنه لم يكترث له ، وكان ينظر الى ايفيش التي كانت تسرح شعرها بلا حذق امام المرآة ، وهي تمسك خصلاتها بيدها المضمدة . وردت شعرها الى خلف فبدا وجهها العريض عاريا . وأحس ماتيو بانه يمتلىء برغبة قاسية ويائسة ، وقال:

ـ انك جميلة .

فقالت ايفيش وهي تضحك :

ـ كلا ، انني على العكس بشعة الى حد فظيع . وهذه هي هيئتي الخفية .

قال ماتيو : اعتقد انني احبها اكثر من تلك .

قالت : سأسرح شعري غدا على هذا النحو .

فلم يجد ماتيو ما يجيب به ، فأحنى رأسه وصمت . وقالت سيدة المغسلة :

ـ انتهى الامر .

هل هو اشتراكية بديل ؟

بقلم محيي الدين اسماعيل

لا مراء في ان عصرنا هذا هو عصر الخوف .. عصر الفزع والهلع ، كما كان القرن السابع عشر عصر العلوم الرياضية ، والقرن الثامن عشر عصر العلوم الفزيقية ، والقرن التاسع عشر عصر العلوم البيولوجية .

هكذا قال البير كامو . وقد صدق !

ويجدر بنا هنا أن نلخص هذه النظرة او الرؤيا التي يرى العالم من خلالها عدد من المثقفين المتمردين المحتجين ككامو وأضرابه من ابناء هذا الجيل الفزع المهزوز ، قبل الاقدام على طرح اي سؤال بشأن أعراض هذا العصر .

لقد بلغ العلم في نطاقيه التجريبي والنظري في عصرنا هذا حدا قد يرتد بعده الى نفسه ارتدادا ذاتيا لينقض نفسه ، ويدمر العالم والانسان ، على يد الانسان . ونتيجة لهذا الوضع الاستثنائي الذي يشهده الانسان اليوم ، فقد انقطع عن المستقبل ، وبدأ يعيش اللحظة الراهنة بشكل مركز خطير . فالحياة ، لا تكون حياة جديرة بأن تحيا ، الا بان تمتد وتتسع لتشارف تخوم المستقبل . اما الحياة المنحسرة المنكفئة على نفسها .. اما الحياة في اللحظة الراهنة فهي حياة الكلب اللاهث يستظل في ضيء الجدران ! ينقطع فيها عن الزمن ويغمض عينيه ، ثم يلقي بالرجام الصلب على قوقعة كيانه . بيد ان الفارق ، هو ان الانسان كان بمقداره ، فيما مضى ، ان يحتج ويمن ويسب ويشجب ، اما اليوم فان القوى التي يخشاها قوى عمياء صماء بكماء ، او بايدي اناس عمى صم بكم فهم لا يسألون !.. العالم التكنولوجي الحديث لا يصغي الى آهاتنا وتوسلاتنا واحتجاجاتنا .. الآلة قد تحولت الى وحش ذي مخالب فولاذية رهيبة يطبق بها على كوكبنا العاري .. اننا نعيش الان ، وفي اعماقنا جميعا ركام هيروشيما وناغازاكي ! والسنين التي قضيناها في ظلام الفزع والرعب ، كادت ان تجهز على كل شيء جوهري ، هو الثقة بالانسان التي كانت تعمر قلوب ابناء العصور السالفة .

وانى لنا ان نؤمن بالانسان ذلك الايمان السالف المهدور ، ونحن نرى كل يوم ان الانسان يقتل ويعذب ويكذب ويعطل كل قواه الرفيعة — على اوسع نطاق — على النطاق الانساني لا الفردي .

لقد انتهى حوار الانسانية مع نفسها في هذا العصر . ويبدو ان عصر التفهم والفهم قد انتهى . فأنت لا تستطيع اليوم ابدا الا ان تفزع من انسان لا يقوى على التفهم والفهم .. انه شيء مفزع حقا !

هناك من اقلع عن التعبير عن آرائه في عالمنا هذا ... ملايين كثيرة قد ران فوق كياناتها الصمت الكثيف ، اما خوفا وفزعا ، واما لانها لم تعد تؤمن بجدوى التعبير .

مؤامرة من الصمت الرهيب تترنح اليوم فوق الانسانية !

يقولون لك : « لا تتحدث عن حملات التطهير الروسية ، فان حديثك هذا يشجع الحركات الرجعية . » يقولون لك ذلك في ظل التجربة السوفييتية ، فتلوذ بالصمت وانت مكره ! ويقولون لك : « لا تتحدث عن التعاون الانكلو سكسوني مع فرانكو والحركات الفاشية والرجعية ، فان حديثك هذا يشجع الشيوعية والمبادىء الهدامة ! » يقولون لك ذلك في عالمك « الحر » فتلوذ بالصمت ايضا ، فيتحول عالمك هذا الى قبر موحش قاتم .

اذن ، فقد تحول « الخوف » الى عملية تكنيكية تستخدم كافة العلوم النظرية والتطبيقية والسيكاوجية .. الخوف هو علم عصرنا هذا ، ونبتته التي اغتذت من

ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رمادي .

— شكرا كثيرا ياسيدتي ، انك بارعة كممرضة .

فاحمر وجه سيدة المفسة من السرور وقالت :

— اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيرا من الاعمال التي تتطلب الدقة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران في رضى الى يديهما الصفقتين المضمدتين . وقالت ايفيش :

— كان لي يدا من خشب .

وكان المرقص قد خلا تقريبا . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالسا على طاولتهما ، وكان ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان باقيا على طاولتهما قدحان نصف ممتلئين ودزينة من السكاير في علبة مفتوحة .

وقال ماتيو : — انه ضلال .

قالت ايفيش : — اجل ، لقد ضللت .

ونظر اليها بوريس نظرة جذل :

— ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : — انه سكينك القذر .

فقال بوريس وهو ينظر الى يديهما نظرة فنان :

— يبدو انه يقص جيدا .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر الى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسربت الى القاعة ، على غير احساس ، وكان المرقص يبعث برائحة الصباح . وفكر ماتيو : « لؤلؤة ، لقد قالت لؤلؤة صغيرة . » وكان سعيدا ، ولم يكن يفكر بعد بأي شيء عن نفسه ، وكان يحس انه جالس في الخارج على مقعد : في الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك ايضا : انني خالدة »

واخذت لولا تغني .